بلاغة الصّورة المفترضة في الخطاب القرآني

The Rhetoric of The supposed image in the Qur'anic discourse

سعد حماده1،*

1جامعة الوادي- الجزائر، hamada.saad64@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2025/06/01 **تاريخ المراجعة**: 2025/09/07 **تاريخ النشر**: 2025/10/01

ملخص: إنّ العقل البشريّ، مهما ارتقى، مرتبط أشدّ الارتباط بالرّاهن الملموس، وعاجز عن التّنبؤ بما يفرزه هذا الرّاهن من نتائج على وجه اليقين، وهذا ما يجبره على التّوقّف عند خطّ التّماس بينه وبين المعارف الغيبية واللّجوء إلى تقريبها بواسطة العالم المحسوس الّذي يحيط به، ويلجأ في ذلك إلى عدة طرق تمكّنه من تقليص المسافة الّتي تفصله عن فهم حقائقها، من بينها تقريبها عن طريق رسم صور مفترضة مستنبطة من هذا العالم. وهذا المقال محاولة لبيان مدى قدرة هذا اللّون من الصّور على تشخيص العوالم الغيبية وتقريب المعاني المجرّدة إلى ذهن المتلقي في النّص القرآني- باعتباره خطابا للعقل البشري- كما يسعى إلى إبراز صيغ تشكيلها، والأبعاد الجمالية الّتي تحملها كلّ صيغة.

الكلمات المفتاحية: الصّورة المفترضة، الصّورة الواصفة، الصّورة التّفاعلية، الواقع، المتخيل.

Abstract : *The human mind is closely linked to the tangible situation, no matter how high it is, and it is unable to predict with certainly what will result from this situation, and this is what makes it forced to stand on the line of contact between himself and unseen facts, closer by means of the tangible world that surrounds him, using several methods that enable him to reduce the distance that separates him from understanding its truths, including bringing it closer by forming supposed Images based on the universe around us.*

This article is an attempt to demonstrate the extent of the ability of this type of images to diagnose unseen worlds and bring abstract meanings closer to the mind of the recipient in the Qur'an text. It also seeks to highlight the formula for their formation and the aesthetic dimensions of each formula.

Key words: *supposed Image, descriptive Image, Interactive Image, reality, imagination*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

لقد تفنّن النّصّ القرآنيّ في صياغة الصّور الافتراضية لتيسير فهم بعض الحقائق الّتي تفوق الإمكانات الإدراكية لدى الإنسان، والغوص بذهنه في عوالم الغيب ومجاهيل الحقائق المجرّدة، فما الصّورة المفترضة وما أثرها في تجسيد المعاني المتعلّقة بالمعارف الغيبية؟ وقبل الجواب عن هذا السّؤال، يجدر بنا أوّلا تقديم مقاربة مفهومية للصّورة.

مفهوم الصّورة:

يقف معنى الصّورة، في بعض المعاجم العربية القديمة، عند ما يُدْرَكُ بالبصر من هياكل الأشياء وهيئاتها، فقد انطلق ابن منظور في تحديد معناها من أحد أسماء الله وهو (المصوِّر)، فـ« المصوّر هو الّذي صوّر جميع الموجودات ورتّبها فأعطى كلّ شيء منها صورة خاصّة وهيئة مفردة تتميّز بها، على اختلافها وكثرتها.»1 ثمّ أورد قولا لابن سيده يؤكّد فيه أنّها لا تتجاوز مجال البصر فحصرها في الشّكل الخارجيّ للأشياء.

ورغم أن الزّمخشري ذهب في كشّافه إلى ما ذهب إليه ابن منظور في حصر مدلول لفظ الصّورة في ما يقع عليه البصر، حين فسّر قوله تعالى. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ.﴾2 فقد بين أن المقصود بالصّورة، في هذه الآية، هو الهيئة الّتي اقتضتها إرادة الله تعالى من الصّور المختلفة في حسن المظهر أو قبحه وفيما يتعلّق بالقامة والجنس .... إلى غير ذلك ممّا لا يخرج من نطاق البصر3، إلّا أنّنا نجدها تتجاوز عنده هذا المفهوم في أساس البلاغة حين ربط الصّورة بالكلام في قوله: «تصوّرت الشّيء. ولا أتصوّر ما تقول»4 وبذلك يكون مفهوم الصّورة عنده شاملا للمبصرات ولما يرتسم في الذّهن من ظلال الأجسام وما يترجمه العقل من معانٍ ومفاهيمَ للكلام الّذي نسمعه، وما ينجرّ عن ذلك من اقتناع عقليّ واستجابة نفسيّة تتحدّد من خلالها مواقفُنا وتصرّفاتِنا، فالصّورة لا تقف في نظره عند حدود الْمُبْصَرَاتِ، وإنّما تتجاوزها إلى ما يتمثّل في الذّهن من هيئات ومفاهيم معا، وبهذا يكون للزّمخشري تصوّر للعلامة اللّغوية لا يختلف كثيرا عن تصوّر العالم اللّغوي دي سوسير، إذ يشير في عبارته الأخيرة إلى أنّ للأقوال صورا في أذهان النّاس تعكس تفاعلهم الشّخصي معها وتمثيلهم للمعاني الّتي تحملها، فهو يعزّز فكرة أنّ اللّغة ليست مجرّد مجموعة من الكلمات (الدّوال)، بل هي وسيلة لتفاعلنا الذّهني مع العالم من حولنا، وهو ما أُطْلِقَ عليه مصطلح (المدلول.) والصّورة الذّهنية الّتي تثيرها الكلمة تعبّر عن التّمثيل الذّهني للمعنى الّذي تحمله هذه الكلمة في عقولنا، هذا التّمثيل الذّهني يمكن أن يشمل الصّور البصرية، كما يشمل الأفكار والمشاعر، أو أي تمثيل آخر يتعلّق بالمفهوم المعنوي الّذي ترمز إليه الكلمة.

ويمكن أن يكون للصّورة الّتي تثار في أذهاننا، نتيجة تلقّي الكلمات، وجود في الواقع، أو يمكن أن تستحضر تقديرا فتحرّك إمكاناتنا التّخييلية، لتتشكّل في أذهاننا، انطلاقا من تجربتنا الشّخصية وخلفياتنا الثّقافية والنّفسية والفكرية، من دون أن يكون لها وجود حقيقي في الواقع، وبناء على ذلك، نصنّف الصّورة إلى

صنفين: الصّورة الواقعية الواصفة لِلْمُبْصَرَاتِ والصّورة المفترضة، وهذه الأخيرة هي الّتي سنحاول إبراز ما تتميّز به من فعالية في إجلاء المعاني وتوضيحها، من خلال دراستها في الخطاب القرآني.

مفهوم الصّورة الافتراضية:

يتضمّن الفعل (فرض) عدّة معان في المعاجم العربية، فقد جاء بمعنى التّبيين والتّوضيح؛ ففي لسان العرب يذهب ابن منظور إلى أنّ الفعل (فَرَضَ) في قول الله سبحانه وتعالى﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ جاء بمعنى (بَيَّنَ)، كما ذهب إلى أنّه يحمل معنى المقدار المعلوم من كلّ شيء يُلْزَمُ به إنسان.[5]

وجاء في المعجم العربي الأساسي أنّ «افترض يفترض افتراضا: ـ أمرا: اعتبره قائما أو مسلّما به، أخذ به في البرهنة على قضية أو حلّ مسألة. والافتراض في الفلسفة: قضية مسلّمة أو موضوعة للاستدلال بها على غيرها»[6]

واستنادا إلى هذه المعاني اللّغوية، فإنّ الصّورة المفترضة هي تمثيل تقديري ذو صبغة حجاجية، يأتي لإعادة تشكيل مفهوم أو تصوّر سابق في ذهن المتلقّي.

الفعالية التّوضيحية للصّورة المفترضة:

إنّ الصّورة المفترضة لا تكتفي بإثارة الصّفات الثّابتة الّتي تتقارب فيها عناصر الحقيقة مع عناصر المتصوّر الذّهني، كما هو الحال فيما يمكن تسميته بالصورة الواصفة، وإنّما تتعداها إلى الانتقال بالمتلقّي خارج حدود الواقع عبر أجواء العالم المتخيل بكلّ ما يثيره من تداعيات حسية ونفسية وذهنية، وذلك نتيجة التّفاعل مع عناصر هذا العالم، شأنها في ذلك شأن النّائم الّذي يتفاعل مع عالم الأحلام بمشاعره وأفكاره وحواسه، وبهذا تختلف عن الصّورة الواصفة الجامدة بأنّها صورة تفاعلية يتعايش فيها المتلقّي مع السّياقات الحسية والرّوحية والنّفسية المحيطة بها.

فإذا كانت فعالية الصّورة الواصفة تتجلّى في تطابق مقوّماتها مع الصّورة المرجعية، أو في كونها- في بعض الحالات- أقوى وأبرز، فإنّها في الصّورة المفترضة التّفاعلية تتجلّى من خلال التّداعيات الّتي يثيرها تفاعل عناصر هذه الصّورة. فلو قلنا لشخص: أنت شجاع كالأسد، فإنّ المتلقّي يستند في استنباط المدلول من خلال استشعار قوة وبروز صفة الشّجاعة في المشبه به وهو الأسد، أمّا لو طلبنا منه أن يفترض أنّه أسد، فإنّه يتفاعل نفسيا وحسيا مع ما تستدعيه صورة الواقع الافتراضي الجديد، إذ يتقمّص شخصية الأسد ويستدعي البيئة الطبيعية الّتي يتواجد فيها وما يلابسها من تعامل مع بقية الوحوش وما ينجرّ عن ذلك من نتائج، وهكذا يتعايش مع المدلول بدل الاكتفاء بمعرفته السّطحية، وقد تجسّدت هذه الفعالية في الخطاب القرآني بأسلوب مُعْجِزٍ يثير جوّا تفاعليا يُدْخِلُ المتلقّي في واقع النّصّ القرآني.

مجال توظيف الصّورة المفترضة في القرآن الكريم:

تأتي الصّورة المفترضة في القرآن الكريم لتحقيق بعدين بيانيين هما:

- تمثيل المعاني الخفية ممّا يتعلّق بالعالم الغيبي والحقائق المجرّدة.
- كشف الحقائق المجهولة عن طريق معايشة ملابساتها، وتفصيل ذلك فيم يأتي:

أوّلا: تمثيل المعاني الخفية ممّا يتعلّق بالعالم الغيبي والحقائق المجرّدة:

من وظائف الصّور المفترضة في القرآن الكريم، بناء نماذج ذهنية لحقائقَ غيبية ومعانٍ مجرّدة، تمكّن المتلقّي من استجلائها ومعايشتها كلّما دعت الحاجة إليها، ومن أهمّ هذه المعاني الّتي تمثّلها الصّورة المفترضة:

أ- **دلائل وحدانية الله وقدرته:**

إنّ التّصوّر الّذي يسيطر على عقول البشر قبل رسوخ الاعتقاد بوحدانية الله، هو استحالة تسيير هذا الكون الفسيح بمظاهره وظواهره المتنوّعة من طرف قوة موحّدة، وهذا ما جعلهم يقرّون بوجود قوى مختلفة تشترك في امتلاكه وتتضافر في إنشائه وتسييره، فجاءت الرسالات السّماوية لتصحّح هذا الاعتقاد وتبني تصوّرا جديدا لسرّ عظمة الكون وحسن انسجامه، وقد جاء الإسلام ليصحّح ما أفسده الاعتقاد المنحرف عند أتباع الدّيانات السّابقة الّتي شوّهها التّحريف، فمن معتقد بأنّ الله قد اتّخذ أعوانا من أبناء وصاحبة، إلى معتقد بأنّ لله شركاء في ربوبيته وتسييره للكون...، فجاء ليبطل ذلك بوسائل إقناع متعدّدة، منها إثارة صور افتراضية انطلاقا من نظرة المشركين ومقارنتها بصور الواقع السّائد، ومن بين هذه الصّور ما جاء في قوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [7]

هذه الآية تعرض صورة مجملة لعالم افتراضي تحكمه آلهة متعدّدة، وما يمكن أن ينجرّ عن ذلك من اختلال في نظام الكون بسبب اختلافها في طريقة تسييره، وما يترتّب عنه من فساد في حياة البشر. والملاحظ أن هذه الصّور المفترضة تشكّلت من جزأين:يتمثّل جزؤها الأول في جملة الشّرط المشكّلة من (لو) المتضمنة معنى الشرط وهو حرف يمتنع فيه تحقيق جواب الشّرط الامتناع وجوده، والجملة الاسمية (كان فيهما آلهة...)، ويتمثّل جزؤها الثّاني من جملة جواب الشّرط المكوّنة من الجملة الفعلية المؤكّدة بـ(لام التّوكيد) ، ولعلّ ذلك يوحي بيقينية الوحدانية، واستحالة توافق التّعدّد مع ما ينعكس في الكون من تناسق وانسجام يدلّان على وحدانية مدبّره.

وقد عُرِضت هذه الصّورة بشيء من التّفصيل في قوله تعالى:

﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَّلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنِ اِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ.﴾[8] فإذا كانت الصّورة السّابقة قد عرضت النّتيجة الّتي يفضي إليها تعدّد الآلهة مباشرة ، والّتي تتمثّل في فساد الكون، فإنّ هذه الآية تميّزت بشيء من التّفصيل؛ إذ أثارت في أذهاننا ثلاث صور جزئية هي:

صورة الحقيقة الغيبية الكائنة، والّتي تتمثّل في وحدانية الله وتفرّده في تسيير الكون البديع.

صورة الوجود المزيّف بآلهة متعدّدة تربط بينها علاقات اجتماعية.

صورة الشّقاق والصّراع المحتدم بين هذه الآلهة والخراب الّذي قد ينجرّ عن ذلك.

وهكذا تتضافر الصّور الثلاث لتكشف زيف الاعتقاد بالتّعدّد، فَتَصَوُّرُ المشركين لطبيعة التّعدّد- وهو ما توحي به عبارة ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَّلَدٍ ﴾- يستدعي في المنظور البشري، الاقتران الجنسي النّاتج عن الميل الغريزي وما يتبعه من تكاثر وتعدّد في النّوع وما ينجرّ عن ذلك من تعارض في الرّغبات، وكلّ ذلك يفضي إلى التّنازع الّذي قد يتسرّب إلى شؤون التّدبير والخلق، وبذلك تستحكم عوامل الشّقاق الّذي يكون سببا لاختلال الكون، وقد جاءت الصّورة المفترضة نتيجة منطقية للمعتقد الفاسد، فجاءت بعد حرف الجواب والجزاء (إذاً)

مباشرة وحذفت جملة الشّرط والمقدّرة بـ (ولو اتّخذ ولدا) لتجسّد حتمية الفساد الّذي يسود الوجود في حال افترضنا أنّ الأمر كما يتصوّر المشركون.

وسنعرض لصورة أخرى بنفس الصّيغة في موضع آخر من هذا المقال.[9]

وقد تجتمع الجملة الشّرطية وحرف الجواب في تشكيل الصّورة الافتراضية كما في قوله تعالى:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا﴾[10] لقد ذهب المفسّرون إلى أنّ الجملة الواقعة جوابا لـ (لو) تحتمل تفسيرين: الأول محاولة الآلهة المفترضة منافسة ذي العرش في الملك، والثّاني حاجتهم إليه والتّقرّب منه بالخضوع والتّضرّع له، وكلّ من التفسيرين يجسّد صورة مليئة بالحركة والانفعال تكشف نزول الآلهة المزعومة إلى مستوى التّعامل البشري، منازعةً أو تضرّعا وخضوعا، ممّا ينفي عنها صفات الألوهية. ودخول (إذاً) بين جملة الشّرط وجواب الشّرط، تفيد الزّيادة في تأكيد النّتيجة الّتي يفضي إليها وجود شركاء لله.

وفي صورة بديعة أشبه ما تكون بمشهد ساخر، تتجلّى فيه بلادة المشركين، وبطلان ما يدّعونه من خلال ما ترسمه الآية الكريمة من سورة الحج:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ.﴾[11] هذه الآية تجسّد مشهدين:

<u>الأول:</u> مشهد الحشد الكبير من الآلهة المزعومة وهي تقف عاجزة في محاولات يائسة إزاء حشرة صغيرة من أضعف وأحقر خلق الله، فلا هي قادرة على خلقها، ولا هي قادرة على حماية نفسها منها.

<u>والثّاني:</u> مشهد التّصرّف الغبي للمشركين الّذين يستجيرون بهذه المعبودات في خشوع ورهبة ينبئان عن بلادة حسّهم وقصور عقولهم.

لقد تغيّر ترتيب عناصر الصّورة الافتراضية في هذه الآية، بحيث تقدّم جزؤها الثّاني، والمتمثّل في عجز الآلهة المزعومة عن خلق الذّباب الّذي يعدّ نتيجة المعطى المفترض والمتمثّل في اجتماعها لذلك، وهذا التّغيير يجعل المتلقّي يركّز انتباهه في ذلك المشهد الباعث على السّخرية والازدراء فينكشف للمشركين زيف ادّعائهم وينبّههم إلى مراجعة أنفسهم واكتشاف معتقدهم الباطل حين يستشعرون ضعف آلهتهم وعجزها عن حماية نفسها ناهيك عن حماية غيرها.

ب- <u>لانهائية علم الله وقدرته:</u>

رغم استعداد العقل البشري لاستيعاب عوالم ومفاهيم تتجاوز الواقع المادّي، إلّا أنّ هناك عوامل تُصَعِّبُ عليه تجاوز الحدود الزّمنية والمكانية المعتادة، لأنّ الوعي البشري مرتبط مباشرة بهذا الواقع المادّي الّذي يحيط به، إذ أنّ ما يبدعه من عوالم وما يترجمه من أفكار مستندة إلى تجارب وخبرات واقعية محدّدة، لذلك يصعب تصوّر عالم اللّامحدود، لأنّنا مهما جمحنا بخيالنا فإنّنا نبقى مقيّدين بقيود إدراكية ومفاهمية كابحة لهذا الجموح، بحيث لا يمكننا تصوّر مفاهيم تفوق خبراتنا السّابقة، كما لا يمكننا التّفكير بوسائل غير متاحة

لنا من لغة ومفاهيم. فجاءت الصّور الافتراضة في القرآن لتكون مطية لاقتحام عوالم اللّامحدود، ومن هذه الصّور ما جاء في قوله تعالى:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا.﴾ [12]

فالقارئ مهما حاول تصوّر حدود المعارف الإلهية والأسرار الكونية بذهنه المجرد، فإنّه يعجز عن أن يدرك مقدار امتدادها اللّامحدود، فيتكثّف إدراكه في هذه الصّورة البصرية الافتراضية، لأنّ هذا المعنى يفوق حدود إدراكه، فهذه الصّورة الافتراضية تحيط المتلقّي بسياج الإدراك الحسّي وتحول بينه وبين الغوص في بحر التّجريد الّذي يبعده عن فضاءات الموضوع المطروح.

وتُعْرَضُ الصّورة نفسُها في موضع آخر، ولكن في قالب آخر أكثر تمثيلا، وأكثر تفصيلا حين أضيفت عناصر كونية للمشهد السّابق تثير القوّة الإدراكية لدى المتلقّي،وتجعله يستجلي تفاصيل أكثر عن شذرات العالم المطلق المنعكس على مرآة الوجود المحسوس، لأنّ «ما يتشكّل في عالم الشّهادة قبالتنا إزاء أحاسيسنا ووعينا من لمسات جمالية لا تعدو أن تكون شاهداً مجتزأً محدوداً من أصولٍ كليةٍ كاملةٍ لا نهائيةٍ. »13 ينتقل من المعقول إلى المحسوس، ومن الغيبيّ إلى المشهود، يقول جلّ وعلا:

﴿وَلَوَ انَّمَا فِي الاَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.﴾[14]

وهنا يحقّ لنا أن نتساءل: لم افترضت صورة الوسائل الّتي تعدّ قبل التّدوين ولم تفترض صورة المدوّنة الضّخمة الّتي يمكن أن تنتج عن هذه الوسائل؟ بمعنى آخر، لماذا لم يفترض الكمّ الهائل من الصّحف المكتوبة الّتي تحمل كمّا هائلا من المعلومات، ثمّ يعقّب على ذلك بأنّ كل هذه المعلومات لا تعدو أن تكون أقل القليل ممّا يحويه علم الله ومشيئته؟ والجواب في نظري أنّ الهدف من هذه الصّورة تحقيق غايات ثلاث:

<u>الأولى:</u> عقلية؛ وتتمثّل في تهيئة الذّهن لتقبّل حقيقة لا تحتمل التّصديق العقلي، وذلك عن طريق استبعاد إمكانية حصر علم الله ومشيئته في حيّز مكاني مهما اتّسع.

<u>والثّانية</u>: نفسية؛ وتتمثّل في التّيئيس من القدرة على الإحاطة بعلم الله، وذلك عن طريق عرض الحواجز الّتي تحول دون تحقيق هذه الغاية وقصور قدرة الإنسان على إعداد بحور من المداد وأكوام من الأقلام، وهو ما يظهرها في صورة المستحيل حسب المنطق البشري. مثلها في ذلك مثل صورة ولوج الجمل في سمّ الخياط الّتي وردت في تيئيس المكذّبين المستكبرين من دخول الجنّة[15]

<u>والثّالثة:</u> فنّية؛ وتتمثّل في رسم صورة ملائمة لِتَجَدُّدِ مشيئة الله واستمرارها ولا محدوديتها، لأن العناصر الّتي اتّخذت وسيلة لرسم الصّورة الافتراضية متجدّدة وغير منتهية، فماء البحر مهما تعرّض لعوامل الطّبيعة الّتي قد تغير مقداره لفترة محدّدة بسبب التّبخر أو الجفاف، من برودة وحرارة، فإنّه يتجدد باستمرار، كما أنّ حياة الشّجر مستمرّة ومتجدّدة إلى قيام السّاعة.

لقد رسمت هذه الآية مشهدا كونيا مذهلا محفّزا لتداعيات مشهدية تشكّل في ذهن المتلقّي واقعا متحرّكا مفعما بالحوادث والشّخوص والأشياء، إنّه واقع يملؤه صرير الأقلام المنبعث من الحشد الكبير الّذي يفترض أن يفوق عدد سكان الأرض من الكتّاب، استنادا إلى العدد الهائل من الأقلام والكم الهائل من المداد، وهو أقصى ما يمكن أن يبلغه علم البشر مجتمعين، من بداية الخليقة إلى يوم القيامة، ولكن ذلك لا يمثّل إلا أقلّ القليل أمام علم الله اللّامحدود، وقدرته اللّامحدودة. أيُّ علم هذا وأيُّ قدرة هذه الّتي تعجز بحار الكون كلّها وأشجار الكون كلّها عن تدوينه؟! إنّه علم الله وقدرته ومشيئته الّتي لا يمكن للعقل البشريّ إدراكُها مهما اتّسع، إلّا بتحريك قوّته الإدراكية عن طريق إثارة هذه الصّورة الافتراضية المفعمة بالحركة الّتي تحوّل تصوّره من حيّز الذّهن إلى حيّز الحسّ، حيّز البصر وهو يرى بحور المداد تستهلك في التّدوين، وأكداس الأقلام ترمى لتستبدل بغيرها، والسّمع الّذي يملؤه صريرها، واللّمس الّذي يوهنه قطعها وتسويتها، ثمّ بريها وإعدادها، ثمّ استنفاذ كلّ ذلك في تدوين أقلّ القليل مما يمكن تدوينه من علم الله ومشيئته وقدرته، دون أن يتمكّن ذلك كلّه من استنفاد كلمات قليلة من ذلك. فعرضت ما يحتويه من دلائل على عظمة الله وعجائب خلقة في هذه الآية، زيادة في تفصيل عناصر الصّورة السّابقة، إذ أنّ في الجمع بين الأرض والبحر إيحاء بشمول الكون؛ أي أنّ ما في اليابسة كلّها من أشجار وما في الكون كلّه من بحار غير قادر على تدوين أقلّ القليل من علم الله وقدرته، مهما زيد في عدد الأبحر وكمية الأقلام.

والجدير بالملاحظة ألّا نفهم من ذكر الرّقم سبعة تحديدا للقدر المحتمل الّذي يتمكّن من حصر المشيئة، بل ذُكِرَ العدد للدلالة على الكثرة وليس المقصود هو الرقم في حدّ ذاته.16 « إنّه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة، ليقرّب إلى تصوّرهم معنى تجدّد المشيئة الّذي ليس له حدود، والّذي لا يكاد تصوّرهم البشري يدركه بغير هذا التّجسيم والتّمثيل»[17]

ج- أهوال القيامة وشدّتها على الكفّار:

ومن الحقائق لغيبية الّتي تتجسّد في صورة افتراضية، موقف الكافر من هول ما يلقاه من عذاب يعجز العقل البشري عن استيعابه، فينطلق من غريزة جامحة متمثّلة في الشّره الشّديد لامتلاك أكبر مقدار من المال، والشّحّ الشّديد في إنفاقه، وفي مقابل ذلك يجسّد مقدار التّضحية الّتي يكون مستعدّا لتقديمها مقابل نجاته، عن طريق صورة افتراضية متمثّلة في امتلاكه الدّنيا كلّها واسترخاصها مقابل نجاته من العذاب، يقول سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ اَنَّ لَهُمْ مَا فِي الارْضِ جَمِيعًا لِيَفْتَدُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ [18] ﴾ لقد جسّدت هذه الصّورة لقطة مشهدية يظهر فيها الكفّار محمّلين بكلّ ما حوته الأرض من أموال ليقدّموها فدية تحرّرهم ممّا أُعِدَّ لهم من عذاب أليم، ولكن كلّ ذلك يقابل بالرّفض ويساق منكسرا ذليلا.وهكذا تتجسد له تفاهة كلّ ما امتلكه حين يتبيّن له عجزه عن توظيف ما يفترض أنّه امتلكه في تخليص نفسه من الموقف

الرّهيب والألم الشّديد الذي ينتظره، ومن خلال هذه الصّورة يتمثّل المتلقّي الحالة النّفسية الّتي يشعر بها الكافر حين يرى العذاب، من شعور بالخيبة والنّدم الشّديد الذي صوّره قوله تعالى:

﴿وَلَوَ انَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْاَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.﴾[19]

وقد تكرّرت هذه الصّورة في مواضع أخرى من القرآن الكريم مبرزة أن الكافر مستعدّ لأن يفتدي من العذاب بأكثر من ملء الأرض أموالا في قوله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوَ انَّ لَهُمْ مَا فِي الَاَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أَوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادِ.﴾[20]

وفي قوله تعالى:

﴿وَلَوْ اَنّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الَاَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ.﴾[21]

ثانيا: <u>كشف الحقائق المجهولة عن طريق معايشتها</u>: ومن وظائف الصّور الافتراضية في القرآن الكريم إماطة اللّثام عن بعض الحقائق الّتي غفل عنها الإنسان في غمرة عناده وقصور تفكيره، عن طريق معايشتها وجدانيا وفكريا ومن هذه الحقائق:

أ- <u>حقيقة عظمة القرآن وقوّة تأثيره:</u>

لقد نبّه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلّم بعظمة الأمانة الّتي يتضمّنها القرآن العظيم في مواضع كثيرة من كتابه العزيز مجسّدا هذه العظمة في صور واصفة ومفترضة؛ من الصور الواصفة ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا.﴾[22]

أمّا المفترضة ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَلَوَ انَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْاَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى، بَلْ لِلّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا.﴾[23]

يمكننا أن نقف في هذه الصّورة على ثلاث حقائق:

<u>الأولى</u>: ما يحتويه القرآن من أسرار إلهية تمكّن من تسخير الكون وتطويعه.

<u>والثّانية</u>: شمول القرآن وقدرته على كفاية البشر في تحقيق حاجاته كلّها، فالإضافة إلى كونه يغذّي حاجاته الرّوحية، فهو أيضا موجّه إلى تحقيق حاجاته الحياتية.

<u>والثّالثة</u>: قوّته التّأثيرية على جميع المخلوقات؛ فإنّ للقرآن «لثقلا وسلطانا وأثرا لا يثبت له شيء يتلقّاه بحقيقته.»[24] وقد وصفه الله تعالى بذلك في قوله:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. ﴾[25]

وقد جُسِّدت هذه الحقائق في عدّة صور مفترضة منها تلك المتمثلة في تحميل الجبل رِسَالَتَهُ ومدى ثقل هذه المهمة عليه وظهور أثر ذلك في هيئته، إذ يقول جلّ من قائل:

﴿ لَوْ اَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[26] هذه الآية تتعلّق بتجسيد القوّة التّأثيرية للقرآن الكريم، إذ لو كان الجبل مكلّفا باتّباع ما فيه من زواجر ومواعظ لبدا تأثّره جليا في خشوعه وتشقّقه[27] وقد يتبادر إلى القارئ أن لفظ الجبل قد استعمل استعمالا مجازيا يصوّر القوة والصلابة الّتي مهما بلغها متلقي القرآن، فإنّها تضعف وتلين أمام قوارعه ومواعظه، غير أنّ الشّيخ الطّاهر بن عاشور يؤكّد غير ذلك، إذ يرى أنّ «المراد بالجبل: حقيقته لأنّ الكلام فرض وتقدير كما هو مقتضى (لو) أن تجيء في الشّروط المفروضة.»[28] ومن خلال هذه الصّور يتجلّى مقدار ما يفترض أن تبثّه توجيهات القرآن العظيم من خشوع واستقامة، فإذا كانت صلابة وشموخ الجبل لا تثبت أمام هذه التّوجيهات، فكيف استطاع الإنسان ذلك؟

« وهذا تمثيل وتخييل لعلوّ شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزّواجر، والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلّة تخشّعه عند تلاوة القرآن وتدبّر ما فيه من القوارع وهو الّذي لو أنزل على جبل وقد ركّب فيه العقل لخشع وتصدّع»[29] هذه المواعظ والزّواجر الّتي تجعل الإنسان يخجل من تطاوله وتجبّره، وهو الكائن الضّعيف الّذي فضّله الله وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولولا فضل الله عليه، لكان في هذا الكون أحقر المخلوقات وأضعفها، فأين قوة الإنسان من ضراوة الوحوش، وأين هي من صلابة وشموخ الجبال، وأين هي من رفعة السّماوات وما فيها وشساعة الأرض وما عليها.... ورغم ذلك يتطاول على المنعم ويتجبّر على مخلوقاته، في حين نجد هذا الكون العظيم خاشعا لله مسبّحا بحمده، فالإنسان إذا تجرّد من الإيمان نسي حقيقته، وأخطأ في تقدير حجمه، فلا يحكمه رادع ولا يثنيه عن غيّه وازع. وفي تقديري أنّ عبارة الشّيخ الطّاهر بن عاشور (وقد ركّب فيه العقل) تخلّ بجمالية الصّورة لاعتبارين:

الأول: أنّ تلقّي كلام الله لا يقف عند حدود التّصور البشريّ، فقد ورد من النّصوص القرآنية ما يدل على أنّ للجماد علاقة روحية مع خالقها بالرّغم من غياب العقل فيها، فهي تسبّح بحمده بشكل لا نعلمه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْاَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وإن من شيء إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[30]

كما ثبت بالنّصوص أن للجمادات شعور بعظمة الخالق، واستشعار لقدرته، منها قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَشَّقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ...﴾

وفي الحديث الصّحيح: اثبت أحد فإنّ فوقك نبي وصدّيق وشهيد.

والثّاني: أنّ الهدف من الصّورة هو إظهار قوّة ما يحدثه القرآن من تأثير على متلقّيه، فصورت ما يمكن أن يحدثه في الجمادات الّتي لا عقل لها لتكشف قصور العاصي وبلادة حسّه رغم تفضيل الله له بنعمة العقل.

وانطلاقا من هذا فإنّ هذه الصّورة المفترضة تكشف حقيقة أخرى وهي أنّ معجزة القرآن لا يتوقّف أثرها عند ما يمكن أن يتصوّره العقل البشريّ بل يتجاوز ذلك إلى ما يفوق التّصوّر، إذ بمقدوره أن يؤثّر في الجماد ويُسمع الموتى ويستجيب له كلّ ما في الكون، والعجب كلّ العجب ألّا يستجيب له الإنسان وقد يَسَّرَ الله له كلّ الإمكانات لوعيه والاستجابة لهديه، وقد وضّح الله تعالى تأثيره في المؤمن بقوله:

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ،إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَّشَاءُ وَمَنْ يُّضْلِلْ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾31

ب- حقيقة الإنسان وطبائعه:

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا.﴾[32] تصوّر أنانية الإنسان وشحّ نفسه وحرصه على الامتلاك رغم سعة رحمة الله، فإنّ الإنسان يخشى نفاذها فلذلك يمتنع عن الإنفاق منها لشدّة بخله

وتُجَسَّد هذه الصّفة الذّميمة في صورة مفترضة في قوله تعالى:

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذا لَّا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾[33] تكشف هذه الصّور عن طبيعة بشرية بغيضة تأصّلت في بعض النّاس، وهي صفة البخل الشّديد، معتقدين أنّ بمقدورهم التّحكّم في أرزاق النّاس بما حصل بأيديهم من مال، متناسين أنّ الله هو مدبّر الكون ومقدّر الأرزاق، ولو كان ذاك بأيديهم لأذلّوا النّاس بمنعهم إياها.

جاءت هذه الصّورة مشكّلة من جملة استفهامية استنكارية متبوعة بحرف جواب وجزاء(إذاً) لتأكيد استحكام البخل والأنانية في الإنسان، والجملة بعدها جوابا لشرط غير جازم محذوف وتقدير الجملة(لو كان لهم نصيب من الملك) غير أنّ الألوسي أنكر تقدير لو الشّرطية وجملتها، بدليل وقوع فاء السّببية.[34]

ونقف عند طبيعة سيّئة يتّصف بها الكافر في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتَ ابْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ.﴾[35]

تصوّر هذه الآية ما يفعله الكفر الجحود في نفس الإنسان، وما يصنعه من عناد وعدم استعداد لتقبّل الحقّ رغم الدّلائل البادية فيما يحيط بالكون من ظواهر تنطق بعظمة خالقها وحكمته في تسييرها، ورغم المعجزات الّتي أيّد الله بها أنبياءه. إلّا أنّ الكافر يستصغرها ويطلب ما هو أكبر ، ولا أدل على ذلك من اليهود الّذين طلبوا رؤية الله جهرة. إنّنا أمام مشهد مفعم بالحركة والعواطف والنّفسيات؛ حركة السّماء وهي تنفرج كبوابة عظيمة، وفضاء مليء بالحشود البشرية صاعدة لتلج هذه البوابة بنظرات بليدة لما يحدث، منكرة في الأخير كلّ الوقائع الّتي عايشتها عيانا، يمنعها عنادها ومكابرتها من الاعتراف بحقيقة ما رأت وما لمست.

وهذا ما صرّحت به كثير من الآيات: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ آأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُومِنُونَ.﴾[36]

وفي مشهد آخر يرسم تعطّل الشّعور وموت الأحاسيس لدى الكفّار حين يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوَ انَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلًا مَا كَانُوا لِيُومِنُوا إِلَّا أَن يَّشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[37] ففي هذا المشهد تتجلّى طبيعة الكفّار المعاندين الّذين لا تنفع معهم الدّلائل، ولا تقنعهم المعجزات، حتّى أنّهم لو أطلعوا على الغيب، فاجتمعوا بالملائكة وعاد إليهم موتاهم ليخبروهم عمّا رأوا بعد الموت، ما كانوا ليؤمنوا لأنّ الكفر والعناد سجية وطبع فيهم، ويتأكّد ذلك في قوله تعالى:

﴿لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

فالحرف(لو) مستعملة لتدلّ على استمرار وجود مضمون الجوب وهو انتفاء الإيمان، لا على قطعية امتناعه، لذلك جاءت جملة الشّرط ممّا يحتمل وجود الجواب في حال امتناعه، إذ من الأجدر ألّا ينتفي الإيمان في حال نزول الملائكة وتكليم الموتى...، ولكن ذلك تحقّق، فوجود الكفر ملازم حتى في حال وجود ما يمنعه، وفي هذه الحالة تقلّ حدّة امتناع الجواب لامتناع الشرط، وذلك بخلاف قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾38 فامتناع الفظاظة والغلظة لدى النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام تمنع قطعا انفضاض المسلمين من حوله، في حين أنّ امتناع تنزّل الملائكة وتكليم الموتى... لا تمنع انتفاء الإيمان قطعا.

ج- **تصوير حقيقة النّعم الّتي منّ الله بها على عباده:**

ومن الحقائق الّتي يغفل عنها الإنسان، تلك النّعم العظيمة الّتي أنعم الله بها على عباده، والّتي لا تظهر قيمتها إلّا في حال فقدها، فجاءت بعض الصّور المفترضة لتجسّد لنا قيمتها عن طريق رسم واقع افتراضي يكتنفه فقدان النّعم مقارنة بالواقع الّذي يعيشه الإنسان في ظلّ النّعم الّتي جحدها، ومن هذه النّعم نعمة تعاقب اللّيل والنّهار، يقول سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنِ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنِ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. ﴾[39] هذه الآية تصوّر لنا مشهدين متناقضين، كلاهما مثير الرّهبة والاضطراب؛ صورة الهمود السّرمدي الموحش وصورة السّهاد السّرمدي المرهق، وبينهما واقع منتظم يكتنفه نهار يسعى فيه الإنسان لقضاء حاجاته وابتغاء رزقه، وليل يستعيد فيه أنفاسه ويريح جسمه.

ومن النّعم الّتي منّ الله بها على مخلوقاته نعمة الماء الّتي تقوم عليها الحياة كلّها، والّتي ينعم الإنسان ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ. ﴾[40]

لقد صوّرت هذه الآية ما يمكن أن يصيب الإنسان من صدمة ورعب، إذ من المفترض أن يوحي لفظ (أصبح) الدّال على التّحوّل بالتّفاؤل، لأنه مأخوذ من الصّباح الّذي يحمل دلالة الانطلاق نحو المستقبل الأفضل

والأمل المشرق والبدايات السّعيدة، ولكنها وردت في أغلب الآيات القرآنية بعكس ذلك، لتوحي بالخيبة والانتكاس النّفسي الّذي يصيب الإنسان نتيجة أعماله السّيئة، فقد ارتبطت بالخسارة والنّدم والهلاك، لتثير مشاعر الرّهبة والخوف من هذه النّهايات، لقد عرضت علينا هذه الآية مشهد استيقاظ النّاس على وقع كارثة بيئية تنذر بفناء الكون، وهو مشهد يستدعي صورا ومشاهد مأساوية تشعر بالرّخاء الّذي حقّقته نعمة الماء، وما يمكن أن يحدث من دمار وخراب في حالة فقدانها. .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنِ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَاتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ. ﴾[41]

هذه الصّور الافتراضية الحاضرة لا تتوقّف عند ما يبثّه النّصّ من عوالم متخيّلة، بل تستدعي صورا غائبة تتمثّل في:

- صورة العباد وهم ينعمون بما وهبهم الله من أفضال تجعلهم يعيشون في رفاهية وبذخ.
- صورتهم وهم عاجزون عن تأمين حاجاتهم الملحّة إلّا بمشيئة الله.
- صورة اللّؤم والجحود الذين يبدوان في تغافلهم عن واقعهم ونكرانهم لهذه الأفضال ومقابلتها بالكفر والعناد،
- صورة حلم الله ورأفة بعباده وإمهالهم رغم شناعة أخطائهم.
- صورة الحياة القاسية الّتي يعيشونها بعد زوال النّعم والمعاناة الشّديدة جرّاء ذلك .

إن الملاحظ في هذه الصّور أنّها صيغت عن طريق جملة فعلية تتكوّن من (همزة الاستفهام) و(الفعل رأى) والحرف المصدري (إن) وما جاء بعدها من صور مفترضة هي صور متعلّقة بظواهر طبيعية تغيراتها المعتادة مألوفة لدينا، ومتفاوتة حسب الظّروف، كما أنّ المشاعر الّتي تنجرّ عنها مألوفة، فتفاوت المدّة الّتي يستغرقها اللّيل والنّهار خاضعة لظروف طبيعية أو نفسية، إذ يطول اللّيل ويقصر باختلاف الفصول أو الموقع الجغرافي أو بعامل نفسي كالهمّ والمرض... كما أنّ تدفّق الماء وقربه من السّطح يخضع للظّروف الطّبيعة كالحرّ والبرد أو الموقع الجغرافيّ، وقل مثل ذلك في تفاوت الحواس من سمع وبصر. ولكن غير المألوف فيها تعميمها واستمرار أمدها إلى يوم القيامة.

خاتمة:

نخلص من خلال استقرائنا للصّور المفترضة في الخطاب القرآني إلى عدّة نتائج نلخّصها في النّقاط الآتية:

- إنّ الصّورة المفترضة صورة تفاعلية تنقل المتلقّي إلى أجواء العالم المتخيل بتداعياته الحسية والنفسية والذّهنية، وذلك نتيجة التّفاعل مع عناصر هذا العالم.
- يتمّ تشخيص المعاني في الصّورة المفترضة عن طريق المقارنة بين صور الواقع الحقيقي وواقع افتراضي.
- يأتي افتراض الصّورة في القرآن الكريم، حسب ما أمكنني استقرائي بثلاث صيغ هي:

[لـو]: وتكون الصّورة فيها بعيدة عن التّصوّر البشريّ أو ما يمكن اعتباره مستحيلا، كما أنّها تأتي في الغالب للدّلالة على استمرار وجود مضمون الجوب لا على امتناعه.

[همزة الاستفهام والفعل (رأى) والحرف المصدري (إن)]: ويكون الافتراض فيها محتملا وأقرب إلى الممكن، وتأتي غالبا للدّلالة على تردّي واقع مألوف.

[إذاً] الّتي تقدّر بعدها جملة شرطية: وتأتي في حالة التّشديد في إنكار الصّور واستهجانها.

- تتشكّل الصّورة المفترضة من جزأين؛ المدخلات (Input) وهو المعطى المفترض، والمخرجات (Output) وهي النتيجة الحتمية المنجرّة عن المدخلات، وقد يحذف جزؤها الثّاني ويقدّر بجملة.
- الصّورة المفترضة تفاعلية تنبض بالحركة وتشكّل فضاء مشهديا يجعل المتلقّي يتعايش مع المعنى.

الهوامش:

1) ابن منظور، لسان العرب، عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشّاذلي، دار المعارف، القاهرة. المجلد04، مادة صور.

2) الانفطار: 08.

3) ينظر، الزّمخشري، الكشاف اعتنى به ورتّب حواشيه محمد السّعيد محمد، ط1، المكتبة التّوفيقية، القاهرة 2012م ، ج4، ص716.

4) الزّمخشري أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة النّشر، بيروت، 1424هـ- 2004م، ص364.

5) ينظر، ابن منظور، لسان العرب، تحقيق، عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشّاذلي، دار المعارف، القاهرة المجلد 05، مادّة (فرض)

6) المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثّقافة والعلوم، 1989م مادّة فرض، ص927.

7) الأنبياء:22.

8) المؤمنون:91.

9) ينظر سورة النّساء: 53

10) الإسراء: 42.

11) الحج: 73.

12) الكهف: 109.

13) عماد الدّين خليل، عالم الغيب في منظور النّورسي، مجلة النّور للدراسات الحضارية والفكرية، عدد1، يناير2010من الرّابط .dergipark.org.tr تاريخ الدّخول،2024/05/01م.

14) لقمان: 27.

15) ينظر سورة الأعراف: 40.

16) ينظر الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، دط، دار سحنون للنّشر والتّوزيع، تونس1997م، ج21ن ص182.

17) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط11، دار الشّروق، ج5، ص2795.

18) المائدة:36.

19) يونس:54.

20) الرّعد:18.

21) الزّمر: 47.

22) الأحزاب: 72.

23) الرّعد: 31.

24) ينظر، سيد قطب في ظلال القرآن، ج27، ص3532.

25) المزّمل: 05.

26) الحشر: 21.

27) ينظر روح المعاني، ج28، ص16.

28) التّحرير والتّنوير، ج28، ص116.

29) روح المعاني، ج28، ص16.

30) الإسراء:44.

31) الزّمر:23.

32) الإسراء:100.

33) النّساء: 53.

34) ينظر، روح المعاني، ج5، ص56.

35) الحجر: 14،15.

36) يس: 10.

37) الأنعام: 111.

38) آل عمران: 159.

39) القصص:71،72.

40) الملك:30.

41) الأنعام: 46.